



قليلاً ﴿سواء عيتم عدده، أم لا﴾ ولو أنكم كنتم تعلمون.

﴿١١٥ - ١١٦﴾ ﴿أنحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون﴾ فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو ربُّ العرش الكريم ﴿أي: ﴿أنحسبتم﴾ أيها الخلق ﴿أنما خلقناكم عبثاً﴾ أي: سدى وباطلاً، تأكلون وتشربون وتمرحون، وتتمتعون بملذات الدنيا، وترتكب ما نأمركم، و[لا] ننهاكم ولا نبيحكم، ونعاقبكم؟ ولهذا قال: ﴿وأنكم إلينا لا ترجعون﴾ لا يخطر هذا ببالكم، ﴿فتعالى الله﴾ أي: تعظم وارتفع عن هذا الظن الباطل، الذي يرجع إلى القدح في حكمته. ﴿الملك الحق لا إله إلا هو ربُّ العرش الكريم﴾ فكونه مَلِكاً للخلق كلهم حقاً، في صدقه، ووعدته، ووعدته، مألوهاً معبوداً، لما له من الكمال ﴿ربُّ العرش الكريم﴾ فما دونه من باب أولى، يمنع أن يخلقكم عبثاً.

﴿١١٧ - ١١٨﴾ ﴿ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون﴾ وقيل ربُّ اغفر وارحم وأنت خير الراحمين ﴿أي: ومن دعا

خير الراحمين﴾ فجمعوا بين الإيمان المقتضي لأعماله الصالحة، والدعاء لربهم بالمغفرة والرحمة، والتوسل إليه بربوبيته، ومنته عليهم بالإيمان، والإخبار بسعة رحمته، وعموم إحسانه، وفي ضمنه، ما يدل على خضوعهم وخشوعهم، وانكسارهم لربهم، وخوفهم ورجائهم.

فهؤلاء سادات الناس وفضلاؤهم، ﴿فانخذقوهم﴾ أيها الكفرة الأندال ناقصو العقول والأحلام ﴿سخرياً﴾ تهزؤون بهم وتحقرونهم، حتى اشتغلتم بذلك السفه.

﴿حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون﴾ وهذا الذي أوجب لهم نسيان الذكر، اشتغالهم بالاستهزاء بهم، كما أن نسيانهم للذكر، يحثهم على الاستهزاء، فكل من الأمرين يمد الآخر، فهل فوق هذه الجراءة جراءة؟! ﴿إني جزيتهم اليوم بما صبروا﴾ على طاعتي، وعلى أذاكم، حتى وصلوا إلي.

﴿أنهم هم الفائزون﴾ بالتعظيم المقيم، والنجاة من الجحيم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿فالיום الذين آمنوا من الكفار يضحكون﴾ الآيات.

﴿قال﴾ لهم على وجه اللوم، وأنهم سفهاء الأحلام، حيث اكتسبوا في هذه المدة اليسيرة كل شر أوصلهم إلى غضبه وعقوبته، ولم يكتسبوا ما اكتسبه المؤمنون [من] الخير، الذي يوصلهم إلى السعادة الدائمة ورضوان ربه.

﴿كم لبثتم في الأرض عدد سنين﴾ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم ﴿كلامهم هذا، مبني على استقصارهم جداً، لمدة مكثهم في الدنيا وأفاد ذلك، لكنه لا يفيد مقداره، ولا يعينه، فلماذا قالوا: ﴿فاسأل العادين﴾ أي: الضابطين لعدده، وأما هم، ففي شغل شاغل^(١)، وعذاب مذهل، عن معرفة عدده، فقال لهم: ﴿إن لبثتم إلا

فقال: ﴿تلفح وجوههم النار﴾ أي: تغشاهم من جميع جوانبهم، حتى تصيب أعضاهم الشريفة، وتقطع لهاها عن وجوههم، ﴿وهم فيها كالحون﴾ قد عيبست وجوههم، وقلصت شفاههم، من شدة ما هم فيه، وعظيم ما يلقونه، فيقال لهم - توبيخاً ولوماً -: ﴿لم تكن آياتي تتلى عليكم﴾ تدعون بها، لتؤمنوا، وتعرض عليكم لتنظروا، ﴿فكنتم بها تكذبون﴾ ظلماً منكم وعناداً، وهي آيات بينات، دالات على الحق والباطل، مبيبات للمحق والمبطل، فحينئذ أقروا بظلمهم، حيث لا ينفع الإقرار ﴿قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا﴾ أي: غلبت علينا الشقاوة الناشئة عن الظلم والإعراض عن الحق، والإقبال على ما يضر، وترك ما ينفع ﴿وكننا قوماً ضالين﴾ في عملهم، وإن كانوا يدرون أنهم ظالمون، أي: فعلنا في الدنيا فعل التائه، الضال السفيه، كما قالوا في الآية الأخرى: ﴿وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾.

﴿ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون﴾ وهم كاذبون في وعدهم هذا، فإنهم كما قال تعالى: ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه﴾ ولم يبق الله لهم حجة، بل قطع أذارهم، وعمرهم في الدنيا، ما يتذكر فيه [من] التذكر، ويرتدع فيه المجرم، فقال الله جواباً لسؤالهم: ﴿احسبوا فيها ولا تكلمون﴾ وهذا القول - نسأله تعالى العاقبة - أعظم قول على الإطلاق يسمعه المجرمون في التخييب، والتوبيخ، والذل، والخسار، والتأيس من كل خير، والبشرى بكل شر، وهذا الكلام والغضب من الرب الرحيم، أشد عليهم وأبلغ في نكابتهم من عذاب الجحيم، ثم ذكر الحال التي أوصلتهم إلى العذاب، وقطعت عنهم الرحمة فقال: ﴿إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا أنما فاغفر لنا وارحمنا وأنت

(١) كذا في ب، وفي أ: كلمة غير واضحة كأنها: متاغل.

صاحبه، وعرض من قارنه ومازجه، ما لا يفعله بقية الذنوب، فأخبر أن الزاني لا يقدم على نكاحه من النساء، إلا أنثى زانية، تناسب حاله حالها، أو مشركة بالله، لا تؤمن ببعث ولا جزاء، ولا تلتزم أمر الله، والزانية كذلك، لا ينكحها إلا زان أو مشرك ﴿وحرم ذلك على المؤمنين﴾ أي: حرم عليهم أن ينكحوا زانياً، أو ينكحوا زانية.

ومعنى الآية: أن من اتصف بالزنا، من رجل أو امرأة، ولم يتب من ذلك، أن المقدم على نكاحه، مع تحريم الله لذلك، لا يخلو إما أن لا يكون ملتزماً لحكم الله ورسوله، فذاك لا يكون إلا مشركاً، وإما أن يكون ملتزماً لحكم الله ورسوله، فأقدم على نكاحه مع علمه بزناه، فإن هذا النكاح زنا، والنكاح زان مسافح، فلو كان مؤمناً بالله حقاً، لم يقدم على ذلك، وهذا دليل صريح على تحريم نكاح الزانية حتى تتوب، وكذلك إنكاح الزاني حتى يتوب، فإن مقارنة الزوج لزوجته، والزوجة لزوجها، أشد الاقتربات والازدواجات، وقد قال تعالى: ﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم﴾ أي: قراءهم، فحرم الله ذلك، لما فيه من الشر العظيم، وفيه من قلة الغيرة، وإلحاق الأولاد، الذين ليسوا من الزوج، وكون الزاني لا يعفها بسبب اشتغاله بغيرها، مما يعضه كاف للتحريم^(١)، وفي هذا دليل أن الزاني ليس مؤمناً، كما قال النبي ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» فهو وإن لم يكن مشركاً، فلا يطلق عليه اسم المدح، الذي هو الإيمان المطلق.

﴿٤ - ٥﴾ ﴿والذين يرمون فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون﴾ إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفورٌ رحيمٌ ﴿لما عظم تعالى أمر

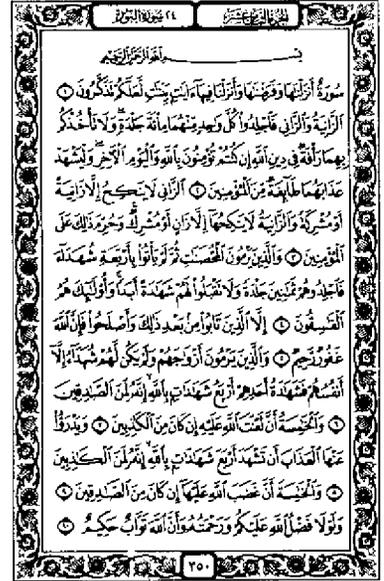
رحمة منا بالعباد، وحفظناها من كل شيطان ﴿وفرصناها﴾ أي: قدرنا فيها ما قدرنا، من الحدود والشهادات وغيرها، ﴿وانزلنا فيها آيات بينات﴾ أي: أحكاماً جليلة، وأوامر وزواجر، وحكماً عظيمة ﴿لعلكم تذكرون﴾ حين نبين لكم، ونعلمكم ما لم تكونوا تعلمون.

ثم شرع في بيان تلك الأحكام المشار إليها، فقال:

﴿٢ - ٣﴾ ﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مئة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين﴾.

هذا الحكم في الزاني والزانية البكرين، أنهما يجلد كل منهما مئة جلدة، وأما الثيب، فقد دلت السنة الصحيحة المشهورة، أن حده الرجم، ونهانا تعالَى أن تأخذنا رأفة [بهما] في دين الله، تمنعنا من إقامة الحد عليهم، سواء رأفة طبيعية، أو لأجل قرابة أو صداقة أو غير ذلك، وأن الإيمان موجب لانتفاء هذه الرأفة المانعة من إقامة أمر الله، فرحمته حقيقة، بإقامة حد الله عليه، فنحن وإن رحمناه لجريان القدر عليه، فلا نرحمه من هذا الجانب، وأمر تعالَى أن يحضر عذاب الزانين طائفة، أي: جماعة من المؤمنين، ليشتهر ويحصل بذلك الخزي والارتداع، وليشهدوا الحد فعلاً، فإن مشاهدة أحكام الشرع بالفعل، مما يقوى بها العلم، ويستقر بها الفهم، ويكون أقرب لإصابة الصواب، فلا يزداد فيه ولا ينقص، والله أعلم.

﴿الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين﴾ هذا بيان لرديلة الزنا، وأنه يندس عرض



مع الله آلهة غيره، بلا بينة من أمره ولا برهان يدل على ما ذهب إليه، وهذا قيد ملازم، فكل من دعا غير الله، فليس له برهان على ذلك، بل دلت البراهين على بطلان ما ذهب إليه، فأعرض عنها ظلماً وعناداً، فهذا سيقدم على ربه، فيجازيه بأعماله، ولا ينيله من الفلاح شيئاً، لأنه كافر، ﴿إنه لا يفلح الكافرون﴾ فكفرهم منعهم من الفلاح.

﴿وقل﴾ داعياً لربك مخلصاً له الدين ﴿رب اغفر﴾ لنا حتى تنجينا من المكروه، وارحنا، لتوصلنا برحمتك إلى كل خير. ﴿وأنت خير الراحمين﴾ فكل راحم للعبد، فالله خير له منه، أرحم بعبده من الوالدة بولدها، وأرحم به من نفسه.

تم تفسير سورة المؤمنين، من فضل الله وإحسانه

تفسير سورة النور وهي مدنية

﴿١﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم سورة أنزلناها وفرصناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون﴾ أي: هذه ﴿سورة﴾ عظيمة القدر ﴿أنزلناها﴾

الزاني^(١) بوجوب جلده، وكذا رجمه إن كان محصناً، وأنه لا تجوز مقارنته، ولا مخالطته على وجه لا يسلم فيه العبد من الشر، بين تعالي تعظيم الإقدام على الأعراض بالرمي بالزنا فقال: **«والذين يرمون المحصنات»** أي: النساء الأحرار العفائف، وكذلك الرجال، لا فرق بين الأمرين، والمراد بالرَّمْي الرَّمْيُ بالزنا، بدليل السياق، **«ثم لم يأتوا»** على ما مرأوبه **«بأربعة شهداء»** أي: رجال عدول، يشهدون بذلك صريحاً، **«فاجلدوهم ثمانين جلدة»** بسوط متوسط، يؤلم فيه، ولا يبالغ بذلك حتى يتلفه، لأن القصد التأديب لا الإتلاف، وفي هذا تقدير حد القذف، ولكن بشرط أن يكون المقتذوف كما قال تعالي محصناً مؤمناً، وأما قذف غير المحصن، فإنه بوجوب التعزير.

«ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً» أي: لهم عقوبة أخرى، وهو أن شهادة القاذف غير مقبولة، ولو حُدَّ على القذف، حتى يتوب كما يأتي، **«وأولئك هم الفاسقون»** أي: الخارجون عن طاعة الله، الذين قد كثر شرهم، وذلك لانتهاك ما حرم الله، وانتهاك عرض أخيه، وتسليط الناس على الكلام بما تكلم به، وإزالة الأخوة التي عقدها الله بين أهل الإيمان، ومحبة أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، وهذا دليل على أن القذف من كباثر الذنوب.

وقوله: **«إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحو فإن الله غفور رحيم»** فالتوبة في هذا الموضع، أن يكذب القاذف نفسه، ويقر أنه كاذب فيما قال، وهو واجب عليه، أن يكذب نفسه ولو تيقن وقوعه، حيث لم يأت بأربعة شهداء، فإذا تاب القاذف وأصلح عمله بدل إساءته إحساناً، زال عنه الفسق، وكذلك تقبل شهادته على الصحيح، فإن الله غفور رحيم يغفر

الذنوب جميعاً، لمن تاب وأتاب، وإنما يجلد القاذف، إذا لم يأت بأربعة شهداء إذا لم يكن زوجاً، فإن كان زوجاً، فقد ذكر بقوله:

«٦٠ - ١٠» **«والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهادة إلا أنفسهم فشهدوا أدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين * والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين * ويدبرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين * والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين * ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم»**

وإنما كانت شهادات الزوج على زوجته، دارئة عنه الحد، لأن الغالب، أن الزوج لا يقدم على زمي زوجته، التي يندسه ما يندسها إلا إذا كان صادقاً، ولأن له في ذلك حقاً، وخورفاً من إلحاق أولاد ليسوا منه به، ولغير ذلك من الحكم المفقودة في غيره فقال: **«والذين يرمون أزواجهم»** أي: الحرائر^(٢) لا المملوكات.

«ولم يكن لهم» على رميةهم بذلك **«شهداء إلا أنفسهم»** بأن لم يقيموا شهداء، على ما مرهم به **«فشهدوا أدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين»** سماها شهادة، لأنها نائية مناب الشهود، بأن يقول: **«أشهد بالله إنني لمن الصادقين فيما رميةها به»**.

«والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين» أي: يزيد في الخامسة مع الشهادة المذكورة، مؤكداً تلك الشهادات، بأن يدعو على نفسه، باللعنة إن كان كاذباً، فإذا تم لعانه، سقط عنه حد القذف، ظاهر الآيات، ولو سمي الرجل الذي رماها به، فإنه يسقط حقه تبعاً لها. وهل يقام عليها الحد، بمجرد لعان الرجل وتكولها أم تحبس؟ فيه قولان للعلماء، الذي يدل عليه الدليل، أنه يقام عليها الحد، بدليل قوله: **«ويدبرأ عنها العذاب أن**

إِنَّ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِآلِهَتِهِمْ كُفْرًا لَا تَخْتَصِمُوا لَدُنَّ الْكُفْرَانِ
مُؤْتَمِرِينَ لَكُمْ لِكُلِّ قَوْمٍ قَبِيلَةٌ مَّا أَكْفَرْتُمْ مِنَ الْإِسْمِ وَاللَّهُ
تَوَلَّىٰ كِبْرَهُمْ فَتَبَارَكُ يَعْلَمُ سَعْيَهُمْ ۗ وَلَا يَأْتِيهِمْ فِي
عِلْمِ الْمُرْسَلِينَ وَالْمُؤْمِنَاتُ أُنْفُسُهُنَّ زَوَاجِرٌ وَأَرْوَاحُهُنَّ أَلْفَاكٌ
يُسَبِّحْنَ ۗ وَلَا يَجْمَعُهُنَّ عَذَابٌ وَأَرْبَعَةٌ شَهَدَاءُ فَإِنْ أَتَىٰ الْإِسْمَ
فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ كَذِبٌ ۗ وَلَا تَقْضِ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
وَرَحْمَتِي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسْكُوفٍ مَّا أَقْبَضْتُمْ وَعَدَّكُمْ
عِلْمًا وَلَقَدْ نَبَّأْنَا الْيَهُودَ وَنَعَوْنَهُمْ بِأَفْوَهِكَ مَّا نَبَّأْنَاكُمْ بِهِ
عِلْمًا وَتَحْسَبُونَهُ نَبِيًّا وَهَوَّيْنَاهُ عَنْكُمْ عَظِيمًا ۗ وَلَا يَأْتِيهِمْ فِي
عِلْمِ الْمُرْسَلِينَ إِنَّا نَحْكُمُ هَذَا شَيْئًا مِّنْ أَجْلِ الْإِسْمِ ۗ
يُعْطَىٰ اللَّهُ مَن تَوَدَّ وَالْيُسْرَىٰ إِن كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ ۗ
زَوْجِي اللَّهِ لَكُمْ فِي الدُّنْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۗ إِنَّ الَّذِينَ
يُحْسِنُونَ ۗ أُنْفِصِ اللَّهُ حُرَّتَهُ فِي الدُّنْيَا مِمَّا كَانُوا عَدَابَ آلِيهِ
فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو نُورٍ ۗ وَلَا
تَقْضِ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَحْمَتِي وَأَنَّ اللَّهَ وَفِي رَحْمَتِي

تشهد» إلى آخره، فلو لا أن العذاب وهو الحد قد وجب بلعانه، لم يكن لعانها درأاً له.

ويدبرأ عنها، أي: يدفع عنها العذاب، إذ قابلت شهادات الزوج، بشهادات من جنسها.

«أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين» وتزيد في الخامسة، مؤكداً لذلك، أن تدعو على نفسها بالغضب، فإذا تم اللعان بينهما، فرق بينهما إلى الأبد، وانتفى الولد الملاعن عليه، وظاهر الآيات يدل على اشتراط هذه الألفاظ عند اللعان، منه ومنها، واشتراط الترتيب فيها، وأن لا ينقص منها شيء، ولا يبدل شيء بشيء، وأن اللعان مختص بالزوج إذا رمى امرأته، لا بالعكس، وأن الشبه في الولد مع اللعان لا عبرة به، كما لا يعتبر مع الفراش، وإنما يعتبر الشبه حيث لا مرجح إلا هو.

«ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم» وجواب الشرط محذوف، يدل عليه سياق الكلام أي: لأحل بأحد التلاعاتين الكاذب منها، ما دعا به على نفسه، ومن رحمته وفضله، ثبتت هذا الحكم الخاص بالزوجين، لشدة الحاجة إليه، وأن بين

(١) في آ: الزنا، وفي ب: الكلمة مشطوبة.
(٢) في النسخين: الأحرار وتعل الصواب ما أثبت.

من ذلك، وقد حد النبي ﷺ منهم جماعة، «والذي تولى كسبه» أي: معظم الإفك، وهو المنافق الخبيث، عبد الله بن أبي بن سلول - لعنه الله - «له عذاب عظيم» ألا وهو الخلود في الدرك الأسفل من النار.

ثم أرشد الله عباده عند سماع مثل هذا الكلام فقال: «لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً» أي: ظن المؤمنون بعضهم ببعض خيراً، وهو السلامة مما رما به، وأن ما معهم من الإيمان المعلوم، يدفع ما قيل فيهم من الإفك الباطل، «وقالوا» بسبب ذلك الظن «سبحانك» أي: تنزيهاً لك عن كل سوء، وعن أن تتبلى أصفياك بالأمور الشنيعة، «هذا إفك مبين» أي: كذب وبهت، من أعظم الأشياء، وأبينها. فهذا من الظن الواجب، حين سماع المؤمن عن أخيه المؤمن، مثل هذا الكلام، وأن يبرئه بلسانه، ويكذب القائل لذلك.

«لولا جاؤوا عليه بأربعة شهداء» أي: هلا جاء الرامون على ما رما به، بأربعة شهداء أي: عدول مرضيين. «فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون» وإن كانوا في أنفسهم قد تيقنوا ذلك، فإنهم كاذبون في حكم الله، لأن الله حرم عليهم التكلم بذلك، من دون أربعة شهود، ولهذا قال: «فأولئك عند الله هم الكاذبون» ولم يقل: «فأولئك هم الكاذبون»، وهذا كله، من تعظيم حرمة عرض المسلم، بحيث لا يجوز الإقدام على رميه، من دون نصاب الشهادة بالصدق.

«ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة» بحيث شملكم إحسانه فيهما، في أمر دينكم ودنياكم، «لمسكم فيما أفضتم» أي: خضتم فيه. «من شأن الإفك» عذاب عظيم. «لاستحقاقكم ذلك بما قلتم، ولكن من فضل الله عليكم ورحمته، أن

الجيش في الظهيرة، فلما رأى بعض المنافقين الذين في صحبة النبي ﷺ، في ذلك السفر مجيء صفوان بها في هذه الحال، أشاع ما أشاع، ووشى الحديث، وتلقفته الألسن، حتى اغتر بذلك بعض المؤمنين، وصاروا يتناقلون هذا الكلام، وانحبس الوحي مدة طويلة عن الرسول ﷺ.

وبلغ الخبر عائشة بعد ذلك بمدة، فحزنت حزناً شديداً، فأنزل الله تعالى براءتها في هذه الآيات، ووعظ الله المؤمنين، وأعظم ذلك، ووصاهم بالوصايا النافعة. فقوله تعالى: «إن الذين جاؤوا بالإفك» أي: الكذب الشنيع، وهو زني أم المؤمنين «عصبة منكم» أي: جماعة منتسبون إليكم يا معشر المؤمنين، منهم المؤمن الصادق [في إيمانه ولكنه اغتر بشرويح المنافقين] ^(١) ومنهم المنافق.

«لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم» لما تضمن ذلك تبرئة أم المؤمنين ونزاهتها، والتنويه بذكرها، حتى تناول عموم المدح سائر زوجات النبي ﷺ، ولما تضمن من بيان الآيات المضطر إليها العباد، التي ما زال العمل بها إلى يوم القيامة، فكل هذا خير عظيم، لولا مقالة أهل الإفك لم يحصل ذلك، وإذا أراد الله أمراً جعل له سبباً، ولذلك جعل الخطاب عاماً مع المؤمنين كلهم، وأخبر أن قدح بعضهم ببعض كقدح في أنفسهم، ففيه أن المؤمنين في توادهم وتراحيمهم وتعاطفهم، واجتماعهم على مصالحهم، كالجسد الواحد، والمؤمن للمؤمن كالبنان يشد بعضه بعضاً، فكما أنه يكره أن يقدح أحد في عرضه، فليكره من كل أحد، أن يقدح في أخيه المؤمن، الذي بمنزلة نفسه، وما لم يصل العبد إلى هذه الحالة، فإنه من نقص إيمانه وعدم نصحته.

«لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم» وهذا وعيد للذين جاؤوا بالإفك، وأنهم سيعاقبون على ما قالوا



لكم شدة الزنا وفضاعته، وفضاعة القذف به، وأن شرع التوبة من هذه الكيثر وغيرها.

«١١- ٢٦» «إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم» إلى آخر الآيات وهو قوله: «لهم مغفرة ورزق كريم» لما ذكر فيما تقدم، تعظيم الزني بالزنا عموماً، صار ذلك كأنه مقدمة لهذه القصة، التي وقعت على أشرف النساء، أم المؤمنين رضي الله عنها، وهذه الآيات، نزلت في قصة الإفك المشهورة، الثابتة في الصحاح والسنن والمسانيد.

وحاصلها أن النبي ﷺ، في بعض غزواته، ومعه زوجته عائشة الصديقة بنت الصديق، فانقطع عقدها فأنحبست في طلبه ورحلوا جهلها وهودجها، فلم يفقدوها، ثم استقل الجيش راحلاً، وجاءت مكانهم، وعلمت أنهم إذا فقدوها، رجعوا إليها فاستمروا في مسيرهم، وكان صفوان بن المعطل السلمي، من أفاضل الصحابة رضي الله عنه، قد عرس في أخريات القوم ونام، فرأى عائشة رضي الله عنها فعرفها، فأناخ راحلته، فركبتها من دون أن يكلمها أو تكلمه، ثم جاء يقود بها بعد ما نزل

شرع لكم التوبة، وجعل العقوبة مطهرة للذنوب .

﴿إذ تلقونه بالسنتكم﴾ أي : تلقفونه، ويلقيه بعضكم إلى بعض، وتستوشون حديثه، وهو قول باطل . ﴿وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم﴾ والأمران محظوران، التكلم بالباطل، والقول بلا علم، ﴿وتحسونه هيناً﴾ فلذلك أقدم عليه من أقدم من المؤمنين الذين تابوا منه، وتطهروا بعد ذلك، ﴿وهو عند الله عظيم﴾ وهذا فيه الزجر البليغ، عن تعاطي بعض الذنوب على وجه التهاون بها، فإن العبد لا يفيد حسابه شيئاً، ولا يخفف من عقوبة الذنب، بل يضاعف الذنب، ويسهل عليه مواقفته مرة أخرى .

﴿ولولا إذ سمعتموه﴾ أي : وهلا إذ سمعتم - أيها المؤمنون - كلام أهل الإفك ﴿قلتم﴾ منكرين لذلك، معظمين لأمره : ﴿ما يكون لنا أن نتكلم بهذا﴾ أي : ما ينبغي لنا، وما يليق بنا الكلام، بهذا الإفك المبين، لأن المؤمن يصنع إيمانه من ارتكاب القبائح ﴿هذا بهتان﴾ أي : كذب عظيم . ﴿يعظكم الله أن تعودوا لمثله﴾ أي : لتظيره، من زمي المؤمنين بالفجور، فالله يعظكم وينصحكم عن ذلك، ونعم المواعظ والنصائح من ربنا فيجب علينا مقابلتها بالقبول والإذعان، والتسليم والشكر له، على ما بين لنا ﴿إن الله نعماً يعظكم به﴾ . ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ دل ذلك على أن الإيمان الصادق، يمنع صاحبه من الإقدام على المحرمات . ﴿ويبين الله لكم الآيات﴾ المشتمة على بيان الأحكام، والوعظ، والزجر، والترغيب، والترهيب، يوضحها لكم توضيحاً جليلاً . ﴿والله عليم﴾ أي : كامل العلم عام الحكمة، فمن علمه وحكمته، أن علمكم من علمه، وإن كان ذلك راجعاً لمصالحكم في كل وقت .

﴿إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة﴾ أي : الأمور الشنيعة المستقبحة المستعظمة، فيحبون أن تشيع الفاحشة ﴿في الذين آمنوا لهم عذاب أليم﴾ أي : موجع للقلب والبدن، وذلك لغشه لإخوانه المسلمين، وعجبة الشر لهم، وجراءته على أعراضهم، فإذا كان هذا الوعيد، لمجرد عجة أن تشيع الفاحشة، واستحلاء ذلك بالقلب، فكيف بما هو أعظم من ذلك، من إظهاره، ونقله؟! وسواء كانت الفاحشة، صادرة أو غير صادرة .

وكل هذا من رحمة الله بعباده المؤمنين، وصيانة أعراضهم، كما صان دماءهم وأموالهم، وأمرهم بما يقتضي المصافاة، وأن يحب أحدهم لأخيه ما يجب لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه . ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ فلذلك علمكم، وبين لكم ما تجهلون .

﴿ولولا فضل الله عليكم﴾ قد أحاط بكم من كل جانب ﴿ورحمته﴾ عليكم ﴿وأن الله رؤوف رحيم﴾ لما بين لكم هذه الأحكام والمواعظ، والحكم الجليلة، ولما أمهل من خالف أمره، ولكن فضله ورحمته، وأن ذلك وصفه اللازم أثر لكم من الخير الدنيوي والأخروي، ما لن تحضوه، أو تعدوه .

ولما نهى عن هذا الذنب بخصوصه، نهى عن الذنوب عموماً فقال : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تشيعوا خطوات الشيطان﴾ أي : طرقة ووساوسه . وخطوات الشيطان، يدخل فيها سائر المعاصي المتعلقة بالقلب، واللسان والبدن، ومن حكمته تعالى، أن بين الحكم، وهو : النهي عن اتباع خطوات الشيطان . والحكمة وهو بيان ما في المنهي عنه، من الشر المقتضي، والداعي لتركه فقال : ﴿ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه﴾ أي : الشيطان ﴿يأمر بالفحشاء﴾ أي : ما تستفحشه العقول والشرائع، من الذنوب

العظيمة، مع ميل بعض النفوس إليه . ﴿والمتكر﴾ : هو ما تنكره العقول ولا تعرفه . فالمعاصي التي هي خطوات الشيطان، لا تخرج عن ذلك، فنهى الله عنها للعباد، نعمة منه عليهم أن يشكروه ويذكروه، لأن ذلك صيانة لهم عن التدنس بالردائل والقبائح، فمن إحسانه عليهم، أن نهاهم عنها، كما نهاهم عن أكل السموم القاتلة ونحوها، ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً﴾ أي : ما تطهر من اتباع خطوات الشيطان، لأن الشيطان يسعى هو وجنده، في الدعوة إليها وتحسينها، والنفوس ميالة إلى السوء أمارة به، والنقص مُستول على العبد من جميع جهاته، والإيمان غير قوي، فلو خلى وهذه الدواعي، ما زكى أحد بالتطهر من الذنوب والسيئات والنماء بفعل الحسنات، فإن الزكاة يتضمن الطهارة والنماء، ولكن فضله ورحمته أوجبا أن يتركى منكم من تركى .

وكان من دعاء النبي ﷺ : «اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها»، ولهذا قال : ﴿ولكن الله يزكى من يشاء﴾ من يعلم منه أن يزكى بالتركية، ولهذا قال : ﴿والله سمع عليم﴾ .

﴿ولا يأتل﴾ أي : لا يحلف ﴿أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعقوا وليصفحوا﴾ كان من جملة الخائضين في الإفك «مسطح بن أثاثة» وهو قريب لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكان مسطح فقيراً من المهاجرين في سبيل الله، فحلف أبو بكر أن لا ينفق عليه، لقوله الذي قال .

فزلت هذه الآية، ينهاهم^(١) عن هذا الحلف تتضمن لقطع النفقة عنه، ويحثه على العفو والصفح، ويعدده بمغفرة الله إن غفر له، فقال :

حيث قال «إنما جعل الاستئذان من أجل البصر»، فبسبب الإخلال به، يقع البصر على العورات التي داخل البيوت، فإن البيت للإنسان في ستر عورة ما وراءه، بمنزلة الثوب في ستر عورة جسده.

ومنها: أن ذلك يوجب الريبة من الداخل، ويتهم بالشر سرقة أو غيرها، لأن الدخول خفية، يدل على الشر، ومنع الله المؤمنين من دخول غير بيوتهم حتى يستأمنوا أي: يستأذنوا. سمي الاستئذان استئناساً، لأن به يحصل الاستئناس، وبعده تحصل الوحشة، «وتسلموا على أهلها» وصفة ذلك، ما جاء في الحديث: «السلام عليكم، أدخل؟»

«ذلكم» أي: الاستئذان المذكور «خير لكم لعلكم تذكرون» لاشتماله على عدة مصالح، وهو من مكارم الأخلاق الواجبة، فإن أذن، دخل المستأذن.

«فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا» أي: فلا تمتنعوا من الرجوع، ولا تغضبوا منه، فإن صاحب المنزل، لم يمنعكم حقاً واجباً لكم، وإنما هو متبرع، فإن شاء أذن أو منع، فأنتم لا تأخذ أحدكم الكبير والاشتماز من هذه الحال، «هو أركم لكم» أي: أشد لتطهيريكم من السيئات، وتنميتكم بالحسنات. «والله بما تعملون عليم» فيجازي كل عامل بعمله، من كثرة وقلة، وحسن وعدمه، هذا الحكم في البيوت المسكونة، سواء كان فيها متاع للإنسان أم لا، وفي البيوت غير المسكونة، التي لا متاع فيها للإنسان، وأما البيوت التي ليس فيها أهلها، وفيها متاع الإنسان المحتاج للدخول إليه، وليس فيها أحد يتمكن من استئذانه، وذلك كبيوت الكراء وغيرها، فقد ذكرها بقوله:

«ليس عليكم جناح» أي: حرج وإثم، دل على أن الدخول من غير استئذان في البيوت السابقة، أنه محرم،

للخبيثات ﴿أي: كل خبيث من الرجال والنساء، والكلمات والأفعال، مناسب للخبيث، وموافق له، ومقترن به، ومشاكل له، وكل طيب من الرجال والنساء، والكلمات والأفعال، مناسب للطيب، وموافق له، ومقترن به، ومشاكل له، فهذه كلمة عامة وحصر، لا يخرج منه شيء، من أعظم مفرداته، أن الأنبياء - خصوصاً أولي العزم منهم، خصوصاً سيدهم محمد ﷺ، الذي هو أفضل الطيبين من الخلق على الإطلاق لا يناسبهم إلا كل طيب من النساء، فالقدح في عائشة رضي الله عنها بهذا الأمر قدح في النبي ﷺ، وهو المقصود بهذا الإنك، من قصد المناققين، فمجرد كونها زوجة للرسول ﷺ، يعلم أنها لا تكون إلا طيبة طاهرة من هذا الأمر القبيح.

فكيف وهي هي!! صديقة النساء وأفضلهن وأعلمهن وأطيبهن، حبيبة رسول رب العالمين، التي لم ينزل الوحي عليه وهو في لحاف زوجة من زوجاته غيرها، ثم صرح بذلك، بحيث لا يبقى لمبطل مقالاً، ولا لشك وشبهة مجالاً، فقال: «أولئك ميراثون مما يقولون» والإشارة إلى عائشة رضي الله عنها أصلاً، وللمؤمنات المحصنات الغافلات تبعاً «لهم مغفرة» تستغرق الذنوب «ورزق كريم» في الجنة صادر من الرب الكريم.

﴿٢٧ - ٢٩﴾ «يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأمنوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون * فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أركم لكم والله بما تعملون عليم * ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون» يرشد الباري عباده المؤمنين، أن لا يدخلوا بيوتاً غير بيوتهم بغير استئذان، فإن في ذلك عدة مفاسد: منها ما ذكره الرسول ﷺ،

«الأنحس أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم» إذا عاملتم عبيده، بالصفح، عاملكم بذلك، فقال أبو بكر - لما سمع هذه الآية -: بلى، والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع النفقة إلى مسطح، وفي هذه الآية دليل على النفقة على القريب، وأنه لا تترك النفقة والإحسان بمعصية الإنسان، والحث على العفو والصفح، ولو جرى عليه ما جرى من أهل الجرائم.

ثم ذكر الوعيد الشديد على رمي المحصنات فقال: «إن الذين يرمون المحصنات» أي: العفاف عن الفجور «الغافلات» التي لم يخطر ذلك بقلوبهن «المؤمنات» «لعنوا في الدنيا والآخرة» واللعنة لا تكون إلا على ذنب كبير.

وأكد اللعنة بأنها متواصلة عليهم في الدارين «ولهم عذاب عظيم» وهذا زيادة على المنعة، أبعدهم عن رحمة، وأحل بهم شدة نقمته.

وذلك العذاب يوم القيامة «يوم تشهد عليهم السنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون» فكل جارية تشهد عليهم بما عملته، ينطقها الذي أنطق كل شيء، فلا يمكنه الإنكار، ولقد عدل في العباد، من جعل شهودهم من أنفسهم، «يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق» أي: جزاءهم على أعمالهم، الجزاء الحق، الذي بالعدل والقسط، يجدون جزاءها موفراً، لم يفقدوا منها شيئاً، «ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً» ويعلمون في ذلك الموقف العظيم، أن الله هو الحق المبين، فيعلمون انحصار الحق المبين في الله تعالى.

فأوصافه العظيمة حق، وأفعاله هي الحق، وعبادته هي الحق، ولقاؤه حق، ووعده ووعيدته، وحكمه الديني والجزائي حق، ورسله حق، فلا تُثم حق، إلا في الله وما من الله.

«الخبيثات للخبيثين والخبيثون

عادة، ويحتمل أن المراد بالصالحين الصالحون للتزوج المحتاجون إليه^(١)، من العبيد والإماء، يؤيد هذا المعنى، أن السيد غير مأمور بتزويج مملوكه، قبل حاجته إلى الزواج. ولا يبعد إرادة المعنيين كليهما، والله أعلم.

وقوله: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ﴾ أي: الأزواج والمتزوجين ﴿يَغْنِيهِمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ فلا يسئلكم ما توهمون، من أنه إذا تزوج، افقر بسبب كثرة العائلة ونحوه، وفيه حث على التزوج، ووعده للمتزوج بالغنى بعد الفقر.

﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ كثير الخير عظيم الفضل ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يستحق فضله الديني والدنيوي أو أحدهما، ممن لا يستحق، فيعطي كلاً ما علمه واقتضاه حكمه.

﴿وَلِيَسْتَعْفِفَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ هذا حكم العاجز عن النكاح، أمره الله أن يستعفف، أن يكف عن المحرم، ويفعل الأسباب التي تكفه عنه، من صرف دواعي قلبه بالأفكار التي تخطر بباله فيه، ويفعل أيضاً، كما قال النبي ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء».

وقوله: ﴿الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ أي: لا يقدر على نكاح، إما لفقرهم أو فقر أولياتهم وأسيادهم، أو امتناعهم من تزويجهم [وليس لهم]^(٢)، من قدرة على إجبارهم على ذلك، وهذا التقدير، أحسن من تقدير من قدر «لا يجدون مهر نكاح»، وجعلوا المضاف إليه نائباً مناب المضاف، فإن في ذلك محذورين: أحدهما: الحذف في الكلام، والأصل عدم الحذف.

والثاني: كون المعنى قاصراً على من له حالان، حالة غنى بماله، وحالة عدم، فيخرج العبيد والإماء ومن إنكاحه على وليه، كما ذكرنا.

﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وعد

الفلاح إلا بالتوبة، وهي الرجوع مما يكرهه الله، ظاهراً وباطناً، إلى: ما يحبه ظاهراً وباطناً، ودل هذا، أن كل مؤمن محتاج إلى التوبة، لأن الله خاطب المؤمنين جميعاً، وفيه الحث على الإخلاص بالتوبة في قوله: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ﴾ أي: لا لمقصد غير وجهه، من سلامة من آفات الدنيا، أو رياء وسمعة، أو نحو ذلك من المقاصد الفاسدة.

﴿٣٢-٣٣﴾ ﴿وَأَنْكَحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِيهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكااتبوهم إن علمتم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الذي آتاكم ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم﴾ يأمر تعالى الأولياء والأسياء، بإنكاح من تحت ولايتهم من الأيامي وهم: من لا أزواج لهم، من رجال، ونساء ثيب، وأبكار، فيجب على القريب وولي التيمم، أن يزوج من يحتاج للزواج، ممن تجب نفقته عليه، وإذا كانوا مأمورين بإنكاح من تحت أيديهم، كان أمرهم بالنكاح بأنفسهم من باب أولى.

﴿وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ يحتمل أن المراد بالصالحين، صلاح الدين، وأن الصالح من العبيد والإماء - وهو الذي لا يكون فاجراً زانياً - مأمور سيده بإنكاحه، جزاء له على صلاحه، وترغيباً له فيه، ولأن الفاسد بالزنا، منهى عن تزوجه، فيكون مؤيداً للمذكور في أول السورة، أن نكاح الزاني والزانية محرم حتى يتوب، ويكون التخصيص بالصلاح في العبيد والإماء دون الأحرار، لكثرة وجود ذلك في العبيد



الأجانب، وعلل تعالى ذلك، بأنهم لم يظهروا على عورات النساء، أي: ليس لهم علم بذلك، ولا وجدت فيهم الشهرة بعد ودل هذا، أن المميز تستتر منه المرأة، لأنه يظهر على عورات النساء.

﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ أي: لا يضربن الأرض بأرجلهن، ليصوت ما عليهن من خلي، كخلاخل وغيرها، فتعلم زينتها بسببه، فيكون وسيلة إلى الفتنة.

ويؤخذ من هذا ونحوه، قاعدة سد الوسائل، وأن الأمر إذا كان مباحاً، ولكنه يفضي إلى محرم، أو يخاف من وقوعه، فإنه يمنع منه، فالضرب بالرجل في الأرض، الأصل أنه مباح، ولكن لما كان وسيلة لعلم الزينة، منع منه.

ولما أمر تعالى بهذه الأوامر الحسنة، ووصى بالوصايا المستحسنة، وكان لا بد من وقوع تقصير من المؤمن بذلك، أمر الله تعالى بالتوبة، فقال:

﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ لأن المؤمن يدعو إيمانه إلى التوبة ثم علق على ذلك الفلاح، فقال: ﴿لِيُعْلَمَ تَقْلِحُونَ﴾ فلا سبيل إلى

(١) في التختين: الصالحين للتزوج المحتاجين إليه.

(٢) زيادة من ب بخط مغاير، وقد حذف بعدها حرف (من).

للمستعفف أن الله سيغنيه ويسر له أمره، وأمر له بانتظار الفرج، لئلا يشق عليه ما هو فيه .

وقوله ﴿والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكانتبوهم إن علمتم فيهم خيراً﴾ أي: من ابتغى وطلب منكم الكتاب، وأن يشتري نفسه، من عبيد وإماء، فأجيبوه إلى ما طلب، وكتابوه، ﴿إن علمتم فيهم﴾ أي: في الطالبين للكتابة ﴿خيراً﴾ أي: قدرة على التكسب، وصلاًحاً في دينه، لأن في الكتابة تحصيل المصلحتين، مصلحة العتق والحرية، ومصلحة العوض الذي يبذله في فداء نفسه. وربما جد واجتهد، وأدرتكم لسيده في مدة الكتابة من المال ما لا يحصل في رقه، فلا يكون ضرر على السيد في كتابته، مع حصول عظيم المنفعة للعبد، فلذلك أمر الله بالكتابة على هذا الوجه أمر إيجاب، كما هو الظاهر، أو أمر استحباب على القول الآخر، وأمر بمعاونتهم على كتابتهم، لكونهم محتاجين لذلك، بسبب أنهم لا مال لهم، فقال: ﴿وأتوهم من مال الله الذي آتاكم﴾ يدخل في ذلك أمر سيده الذي كاتبه، أن يعطيه من كتابته أو يسقط عنه منها، وأمر الناس بمعاونتهم.

ولهذا جعل الله للمكاتبين قسطاً من الزكاة، ورغب في إعطائه بقوله: ﴿من مال الله الذي آتاكم﴾ أي: فكما أن المال مال الله، وإنما الذي بأيديكم عطية من الله لكم ومحض منة، فأحسنوا العباد الله، كما أحسن الله إليكم.

ومفهوم الآية الكريمة، أن العبد إذا لم يطلب الكتابة، لا يؤمر سيده أن يبتدئ بكتابه، وأنه إذا لم يعلم منه خيراً، بأن علم منه عكسه، إما أنه يعلم أنه لا كسب له، فيكون سبب ذلك كلاً على الناس، ضائعاً، وإما أن يخاف إذا عتق، وصار في حرية نفسه، أن يتمكن من الفساد، فهذا لا يؤمر

بكتابه، بل ينهى عن ذلك لما فيه من المحذور المذكور.

ثم قال تعالى: ﴿ولا تكرهوا فتياتكم﴾ أي: إماءكم ﴿على البغاء﴾ أي: أن تكون زانية ﴿إن أردن تحصناً﴾ لأنه لا يتصور إكراهها إلا بهذه الحال، وأما إذا لم ترد تحصناً فإنها تكون بغياً، يجب على سيدها منعها من ذلك، وإنما هذا نهي لما كانوا يستعملونه في الجاهلية، من كون السيد يجبر أمته على البغاء، ليأخذ منها أجرة ذلك، ولهذا قال: ﴿لتبتغوا عرض الحياة الدنيا﴾ فلا يليق بكم أن تكون إماءكم خيراً منكم، وأعف عن الزنا، وأنتم تفعلون بهن ذلك، لأجل عرض الحياة، متاع قليل يعرض ثم يزول.

فكسبكم النزاهة، والنظافة، والمروءة - بقطع النظر عن ثواب الآخرة وعقابها - أفضل من كسبكم العرض القليل، الذي يكسبكم الرذالة والخسة.

ثم دعا من جرى منه الإكراه إلى التوبة، فقال: ﴿ومن يكرهه فإن الله من بعد إكراهه غفور رحيم﴾ فليُتَّب إلى الله، وليُقْلِع عما صدر منه مما يغضبه، فإذا فعل ذلك، غفر الله ذنوبه، ورحمه كما رحم نفسه بفكائها من العذاب، وكما رحم أمته بعدم إكراهها على ما يضرها.

﴿٣٤﴾ ﴿ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ومثلاً من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين﴾ هذا تعظيم وتفخيم لهذه الآيات، التي تلاها على عباده، ليعرفوا قدرها، ويقوموا بحققها فقال: ﴿ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات﴾ أي: ووضحت الدلالة، على كل أمر محتاجون إليه، من الأصول والفروع، بحيث لا يبقى فيها إشكال ولا شبهة، ﴿و﴾ أنزلنا إليكم أيضاً ﴿مثلاً من الذين خلوا من قبلكم﴾ من أخبار الأولين، الصالح منهم والبطالح، وصفة أعمالهم، وما جرى لهم وجرى عليهم تعتبرونه مثلاً ومعبراً، لمن فعل

مثل أفعالهم أن يجازي مثل ما جوزوا. ﴿وموعظة للمتقين﴾ أي: وأنزلنا إليكم موعظة للمتقين، من الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، يتعظ بها المتقون، فينكرون عما يكره الله إلى ما يحبه الله.

﴿٣٥﴾ ﴿الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم﴾ ﴿الله نور السماوات والأرض﴾ الحسي والمعنوي، وذلك نه تعالى بذاته نور، وحجابه - الذي لولا لطفه، لأحقرت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه - نور، وبه استنار العرش، والكروسي، والشمس، والقمر، والنور، وبه استنارت الجنة.

وكذلك النور المعنوي يرجع إلى الله، فكتابه نور، وشرعه نور، والإيمان والمعرفة في قلوب رسله وعباده المؤمنين نور. فنلوا نوره تعالى، لتراكمت الظلمات، ولهذا، كل عمل يفقد نوره فتم الظلمة والحصر، ﴿مثل نوره﴾ الذي يهدي إليه، وهو نور الإيمان والقرآن في قلوب المؤمنين، ﴿كمشكاة﴾ أي: كوة ﴿فيها مصباح﴾ لأن الكوة تجمع نور المصباح بحيث لا يتفرق ذلك ﴿المصباح في زجاجة الزجاجة﴾ من صفاتها وبهائها ﴿كأنها كوكب دري﴾ أي: مضيء إضاءة الدر. ﴿يوقد﴾ ذلك المصباح، الذي في تلك الزجاجة الدرية ﴿من شجرة مباركة زيتونة﴾ أي: يوقد من زيت الزيتون الذي تاره من أنور ما يكون، ﴿لا شرقية﴾ فقط، فلا تصيبها الشمس آخر النهار، ﴿ولا غربية﴾ فقط، فلا تصيبها الشمس [أولاً]^(١) النهار، وإذا انتفى عنها الأمران، كانت متوسطة من الأرض، كزيتون الشام،

(١) في النسختين آخر النهار، ولعل الصواب ما أثبتته، ثم إن الكلمة معدلة من آخر إلى أول في ب، بقلم مغاير لما كتبت به النسخة.

لكثرة الاشتغال بالبيع على غيره، فهؤلاء الرجال، وإن تجروا، وبعوا، واشتروا، فإن ذلك، لا محذور فيه. لكنه لا تلهيهم تلك، بأن يقدموها ويؤثروها على ﴿ذكر الله وإقام الصلاة وإيشاء الزكاة﴾ بل جعلوا طاعة الله وعبادته غاية مرادهم، ونهاية مقصدهم، فما حال بينهم وبينها رفقوه.

ولما كان ترك الدنيا شديداً على أكثر النفوس، وحب المكاسب بأنواع التجارات محبواً لها، ويشق عليها تركه في الغالب، وتكلف من تقديم حق الله على ذلك، ذكر ما يدعوها إلى ذلك - ترغيباً وترهيباً - فقال: ﴿يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار﴾ من شدة هولها وإزعاجها للقلوب والأبدان، فلذلك خافوا ذلك اليوم، فسهل عليهم العمل، وترك ما يشغل عنه، ﴿ليجزيم الله أحسن ما عملوا﴾ والمراد بأحسن ما عملوا: أعمالهم الحسنة الصالحة، لأنها أحسن ما عملوا، لأنهم يعملون المباحات وغيرها، فالشواحب لا يكون إلا على العمل الحسن، كقولته تعالى: ﴿ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويمجزيم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ ﴿ويزيدهم من فضله﴾ زيادة كثيرة عن الخبز المقابل لأعمالهم، ﴿والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ بل يعطيه من الأجر ما لا يبلغه عمله، بل ولا يبلغه أمنيته، ويعطيه من الأجر بلا عد ولا كيل، وهذا كناية عن كثرته جداً.

﴿٣٩-٤٠﴾ ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب﴾ أو كظلمات في بحر لحي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾ هذان مثلان، ضربهما الله لأعمال الكفار في بطلانها وذهابها سدى وتحسر عامليها منها

بالغدو والأصال * رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيشاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار * ليجزيم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب.

أي: يتعبد لله ﴿في بيوت﴾ عظيمة فاضلة، هي أحب البقاع إليه، وهي المساجد. ﴿أذن الله﴾ أي: أمر ووصى ﴿أن ترفع ويذكر فيها اسمه﴾ هذان مجموع أحكام المساجد، يدخل في رفعها، بناؤها، وكسها، وتنظيفها من النجاسة والأذى، وصورها عن المجانين والصبيان الذين لا يتحرزون عن النجاسة، وعن الكافر، وأن تصان عن اللغو فيها، ورفع الأصوات بغير ذكر الله.

﴿ويذكر فيها اسمه﴾ يدخل في ذلك الصلاة كلها، فرضها، ونفلها، وقراءة القرآن، والتسبيح، والتهليل، وغيره من أنواع الذكر، وتعلم العلم وتعليمه، والمذاكرة فيها، والاعتكاف، وغير ذلك من العبادات التي تفعل في المساجد، ولهذا كانت عمارة المساجد على قسمين: عمارة بنيان، وصيانة لها، وعمارة بذكر اسم الله، من الصلاة وغيرها، وهذا أشرف القسمين، ولهذا شرعت الصلوات الخمس والجمعة في المساجد، وجوباً عند أكثر العلماء، أو استحباباً عند آخرين. ثم مدح تعالى عمارة بالعبادة فقال: ﴿يسبح له﴾ إخلاصاً ﴿بالغدو﴾ أول النهار ﴿والأصال﴾ آخره ﴿رجال﴾. خص هذين الوقتين لشرفهما ولتيسر السير فيهما إلى الله وسهولته. ويدخل في ذلك، التسبيح في الصلاة وغيرها، ولهذا شرعت أذكار الصباح والمساء وأورادها عند الصباح والمساء. أي: يسبح فيها لله، رجال، وأي: رجال، ليسوا ممن يؤثر على ربه دنياً، ذات لذات، ولا تجارة ومكاسب، مشغلة عنه، ﴿لا تلهيهم تجارة﴾ وهذا يشمل كل تكسب يقصد به العوض، فيكون قوله: ﴿ولا بيع﴾ من باب عطف الخاص على العام،

تصبيها الشمس أول النهار وآخره، فتحسن وتطيب، ويكون أصفى لزيتها، ولهذا قال: ﴿يكاد زيتها﴾ من صفاته ﴿بضيء ولو لم تمسه نار﴾ فإذا مسته النار، أضاء إضاءة بليغة ﴿نور على نور﴾ أي: نور النار، ونور الزيت.

ووجه هذا المثل الذي ضربه الله، وتطبيقه على حالة المؤمن، ونور الله في قلبه، أن فطرته التي فطر عليها، بمنزلة الزيت الصافي، ففطرته صافية، مستعدة للتعاليم الإلهية، والعمل المشروع، فإذا وصل إليه العلم والإيمان، اشتمل ذلك النور في قلبه، بمنزلة اشتعال النار في فتيلة ذلك المصباح، وهو صافي القلب من سوء القصد، وسوء الفهم عن الله، إذا وصل إليه الإيمان، أضاء إضاءة عظيمة، لصفاته من الكدورات، وذلك بمنزلة صفاء الزجاج الدرية، فيجتمع له نور الفطرة، ونور الإيمان، ونور العلم، وصفاء المعرفة، نور على نوره.

ولما كان هذا من نور الله تعالى، وليس كل أحد يصلح له ذلك، قال: ﴿يهدي الله لنوره من يشاء﴾ ممن يعلم زكاه وظهارته، وأنه يزكي معه وينمو. ﴿ويضرب الله الأمثال للناس﴾ ليعقلوا عنه ويفهموا، لطفاً منه بهم، وإحساناً إليهم، وليتضح الحق من الباطل، فإن الأمثال تقرب المعاني المعقولة من المحسوسة، فيعلمها العباد علماء واضحاً، ﴿والله بكل شيء عليم﴾ فعلمه محيط بجميع الأشياء، فلتعلموا أن ضرب الأمثال، ضرب من يعلم حقائق الأشياء وتفصيلها، وأنها مصلحة للعباد، فليكن اشتغالكم بتدبرها وتعقلها، لا بالاعتراض عليها، ولا بمعارضتها، فإنه يعلم وأنتم لا تعلمون.

ولما كان نور الإيمان والقرآن أكثر وقوع أسبابه في المساجد، ذكرها متوهاً بها فقال:

﴿٣٦-٣٨﴾ ﴿في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها

فقال: ﴿والذين كفروا﴾ برهم وكذبوا رسله ﴿أعمالهم كسراب بقيعة﴾ أي: بقاء، لا شجر فيه ولا نبت.

﴿بحسبه الظمان ماء﴾ شديد العطش، الذي يتوهم ما لا يتوهم غيره، بسبب ما معه من العطش، وهذا حساب باطل، فيقصده ليزيل ظمأه، ﴿حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً﴾ فندم تدمناً شديداً، وازداد ما به من الظمان، بسبب انقطاع رجائه، كذلك أعمال الكفار، بمنزلة السراب، تَرَى ويظنها الجاهل الذي لا يدري الأمور، أعمالاً نافعة، فيقره صورتها، ويخيل به خيالها، ويحسبها هو أيضاً أعمالاً نافعة لهواه، وهو أيضاً محتاج إليها بل مضطر إليها، كاحتياج الظمان للماء، حتى إذا قدم على أعماله يوم الجزاء، وجدها ضائعة، ولم يجدها شيئاً، والحال إنه لم يذهب، لا له ولا عليه، بل ﴿وجد الله عنده فوفاه حسابه﴾. لم يخف عليه من عمله نقير ولا قطمير، ولن يعدم منه قليلاً ولا كثيراً، ﴿والله سريع الحساب﴾ فلا يستبطنه الجاهلون ذلك الوعد، فإنه لا بد من إتيانه، ومثلها الله بالسراب الذي بقيعة، أي: لا شجر فيه ولا نبت، وهذا مثال لقلوبهم، لا خير فيها ولا بر، فتزكو فيها الأعمال وذلك للسبب المانع، وهو الكفر.

والمثل الثاني، لبطلان أعمال الكفار ﴿كظلمات في بحر لحي﴾ بعيد قعره، طويل مداه ﴿يفغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحب ظلمات بعضها فوق بعض﴾ ظلمة البحر اللحي، ثم فوقه ظلمة الأمواج المتراكمة، ثم فوق ذلك، ظلمة السحب المدلهمة، ثم فوق ذلك ظلمة الليل البهيم، فاشتدت الظلمة جداً، بحيث إن الكائن في تلك الحال ﴿إذا أخرج يده لم يكد يراها﴾ مع قربها إليه، فكيف بغيرها، كذلك الكفار، تراكمت على قلوبهم الظلمات، ظلمة الطبيعة، التي لا خير

فيها، وفوقها ظلمة الكفر، وفوق ذلك، ظلمة الجهل، وفوق ذلك، ظلمة الأعمال الصادرة عما ذكر، فيقوا في الظلمة متحيرين، وفي غمرتهم يعمهون، وعن الصراط المستقيم مدبرين، وفي طرق الغي والضلال يترددون، وهذا لأن الله تعالى خذلهم، فلم يعطهم من نوره، ﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾ لأن نفسه ظالمة جاهلة، فليس فيها من الخير والنور، إلا ما أعطاها مولاها، ومنحها ربه. يحتمل أن هذين المثالين، لأعمال جميع الكفار، كل منهما، منطبق عليها، وعددها لتعدد الأوصاف، ويحتمل أن كل مثال، لطائفة وفرقة. فالأول، للمتبعين، والثاني، للتابعين، والله أعلم.

﴿٤١ - ٤٢﴾ ﴿ألم تر أن الله يسبح له من في السموات والأرض والطيور صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون﴾ * والله ملك السموات والأرض وإلى الله المصير ﴿يبني تعالى عباده على عظمتها، وكمال سلطانه، وافتقار جميع المخلوقات له في ربوبيتها، وعبادتها فقال: ﴿ألم تر أن الله يسبح له من في السموات والأرض﴾ من حيوان وجماد ﴿والطيور صافات﴾ أي: صافات أجنحتها، في جو السماء، تسبح ربه. ﴿كل﴾ من هذه المخلوقات ﴿قد علم صلاته وتسبيحه﴾ أي: كل له صلاة وعبادة بحسب حاله اللائقة به، وقد ألهمه الله تلك الصلاة والتسبيح، إما بواسطة الرسل، كالجن والإنس والملائكة، وإما بإلهام منه تعالى، كسائر المخلوقات غير ذلك، وهذا الاحتمال أرجح، بدليل قوله: ﴿والله عليم بما يفعلون﴾ أي: علم جميع أفعالها، فلم يخف عليه منها^(١) شيء، وسيجازيهم بذلك، فيكون على هذا، قد جمع بين علمه بأعمالها، وذلك بتعليمه، وبين علمه بأعمالهم المتضمن للجزاء.

يسأل لآلهة من عبادة ولا يسبح عن ذكر الله فاقولوا لا اله الا الله... يسبح له من في السموات والأرض والطيور صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون... ﴿ألم تر أن الله يسبح له من في السموات والأرض﴾ من حيوان وجماد ﴿والطيور صافات﴾ أي: صافات أجنحتها، في جو السماء، تسبح ربه. ﴿كل﴾ من هذه المخلوقات ﴿قد علم صلاته وتسبيحه﴾ أي: كل له صلاة وعبادة بحسب حاله اللائقة به، وقد ألهمه الله تلك الصلاة والتسبيح، إما بواسطة الرسل، كالجن والإنس والملائكة، وإما بإلهام منه تعالى، كسائر المخلوقات غير ذلك، وهذا الاحتمال أرجح، بدليل قوله: ﴿والله عليم بما يفعلون﴾ أي: علم جميع أفعالها، فلم يخف عليه منها^(١) شيء، وسيجازيهم بذلك، فيكون على هذا، قد جمع بين علمه بأعمالها، وذلك بتعليمه، وبين علمه بأعمالهم المتضمن للجزاء.

ويحتمل أن الضمير في قوله: ﴿قد علم صلاته وتسبيحه﴾ يعود إلى الله، وأن الله تعالى قد علم عباداتهم، وإن لم تعلموا - أيها العباد - منها، إلا ما أطلعكم الله عليه. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً﴾.

فلما بين عبوديتهم وافتقارهم إليه - من جهة العبادة والتوحيد - بين افتقارهم، من جهة الملك والتربية والتدبير فقال:

﴿والله ملك السموات والأرض﴾ خالقهما^(٢) ورازقهما، والمتصرف فيهما، في حكمه الشرعي [والقُدري^(٣)]، في هذه الدار، وفي حكمه الجزائي، بدار القرار، بدليل قوله: ﴿والله المصير﴾ أي: مرجع الخلق ومآلهم، ليجازيهم بأعمالهم.

﴿٤٣ - ٤٤﴾ ﴿ألم تر أن الله يزرعي صحاباً ثم يولف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالابصار﴾ * يقرب الله الليل والنهار إن في ذلك لعبرة لأولي

(٤) زيادة من هامش: ب.

(٣) في النسختين: خالقها، وتعلم الصواب ما أثبت.

(١) في النسختين (منه).
(٢) كذا في ب، وفي أ: علمها.

والهedy من الضلال، فلم يبق أدنى شبهة لمبطل يتعلق بها، ولا أدنى إشكال لمريد الصواب، لأنها تنزيل من كَمَل علمه، وكملت رحمته، وكمل بيانه، فليس بعد بيانه بيان ﴿ليهلك﴾ بعد ذلك ﴿من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة﴾، ﴿والله يهدي من يشاء﴾ ممن سبقت لهم سابقة الحسن، وقدم الصدق، ﴿إلى صراط مستقيم﴾ أي: طريق واضح مختصر، موصل إليه، وإلى دار كرامته، متضمن العلم بالحق وإيثاره والعمل به. عمم البيان التام لجميع الخلق، وخصص بالهداية من يشاء، فهذا فضله وإحسانه، وما فضل الكريم بممنون وذاك عدله، وقطع الحجة للمحتج، والله أعلم حيث يجعل مواقع إحسانه.

﴿٤٧﴾ - ﴿٥٠﴾ ﴿ويقولون آتانا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين﴾ وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون * وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين * أنفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون ﴿يخبر تعالى عن حالة الظالمين، ممن في قلبه مرض وضعف إيمان، أو نفاق وريب وضعف علم، أنهم يقولون بالسننهم، ويلتزمون الإيمان بالله والطاعة، ثم لا يقومون بما قالوا، ويتولى فريق منهم عن الطاعة تَوَلِيًّا عَظِيمًا، بدليل قوله: ﴿وهم معرضون﴾ فإن المتولي، قد يكون له نية عود ورجوع إلى ما تولى عنه، وهذا المتولي معرض، لا التفات له، ولا نظر لما تولى عنه، وتجهد هذه الحالة مطابقة لحال كثير ممن يدعي الإيمان والطاعة لله وهو ضعيف الإيمان، تجده لا يقوم بكثير من العبادات، خصوصاً: العبادات التي تشق على كثير من النفوس، كالزكوات، والتفقات الواجبة والمستحبة، والاجتهاد في سبيل الله، ونحو ذلك.

﴿وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم﴾ أي: إذا صار بينهم وبين أحد

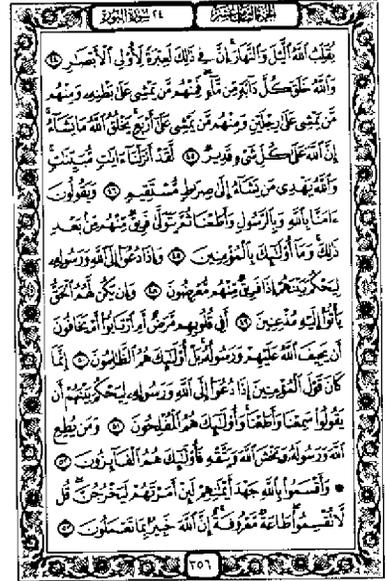
المخلوقات نظر اعتبار وتفكر وتدبر لما أريد بها ومنها، والمعرض الجاهل نظره إليها نظر غفلة، بمنزلة نظر البهائم.

﴿٤٥﴾ ﴿والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير﴾ ينبه عباده على ما يشاهدونه، أنه خلق جميع الدواب التي على وجه الأرض، ﴿من ماء﴾ أي: مادتها كلها الماء، كما قال تعالى: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾.

فالحيوانات التي تتوالد، مادتها ماء النطفة، حين يلقح الذكر الأنثى. والحيوانات التي تتولد من الأرض، لا تتولد إلا من الرطوبات المائية، كالخشرات لا يوجد منها شيء، يتولد من غير ماء أبداً، فالمادة واحدة، ولكن الخلقة مختلفة من وجوه كثيرة، ﴿فمنهم من يمشي على بطنه﴾ كالحية ونحوها، ﴿ومنهم من يمشي على رجلين﴾ كالآدميين، وكثير من الطيور، ﴿ومنهم من يمشي على أربع﴾ كبهيمة الأنعام ونحوها. فاختلافها - مع أن الأصل واحد - يدل على نفوذ مشيئة الله، وعموم قدرته، ولهذا قال: ﴿يخلق الله ما يشاء﴾ أي: من المخلوقات، على ما يشاؤه من الصفات، ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ كما أنزل المطر على الأرض، وهو لفقاح واحد، والأمم واحدة، وهي الأرض، والأولاد مختلفو الأصناف والأوصاف ﴿وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾.

﴿٤٦﴾ ﴿لقد أنزلنا آيات مبينات

والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ أي: لقد رحمنا عبادنا، وأنزلنا إليهم آيات بينات، أي: واضحة الدلالة، على جميع المقاصد الشرعية، والآداب المحمودة، والمعارف الرشيدة، فاتضح بذلك السبيل، وتبين الرشيد من الغي،



الابصار﴾ أي: ألم تشاهد ببصرك، عظيم قدرة الله، وكيف ﴿يزجي﴾ أي: يسوق ﴿سحاباً﴾ قطعاً متفرقة ﴿ثم يولف﴾ بين تلك القطع، فيجعله سحاباً مترامكماً، مثل الخيال.

﴿فتسرى الودق﴾ أي: السوايل والمطر، يخرج من خلال السحاب، نقطاً متفرقة، ليحصل بها الانتفاع من دون ضرر، فتمتلئ بذلك الغدران، وتتدفق الخللجان، وتسيل الأودية، وتنبت الأرض من كل زوج كريم، وتارة ينزل الله من ذلك السحاب برداً يتلّف ما يصيبه.

﴿فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء﴾ بحسب ما اقتضاه حكمه القدري، وحكمته التي يحمدها عليها، ﴿يكاد سنا بركة﴾ أي: يكاد ضوء برق ذلك السحاب، من شدته ﴿يذهب بالابصار﴾ ليس الذي أنشأها وساقها لعباده المفتقرين، وأنزلها على وجه يحصل به النفع وينتفي به الضرر، كامل القدرة، نافذ المشيئة، واسع الرحمة؟.

﴿يقلب الله الليل والنهار﴾ من حر إلى برد، ومن برد إلى حر، من ليل إلى نهار، ونهار إلى ليل، ويبدل الأيام بين عباده، ﴿إن في ذلك لعلوة لأولي الأبصار﴾ أي: لذوي البصائر، والعقول النافذة للأمر المطلوبة منها، كما تنفذ الأبصار إلى الأمور المشاهدة الحسية. فالبصير ينظر إلى هذه

وبقي الحق الثالث المختص بالرسول، وهو التعزير والتوقيف، كما جمع بين الحقوق الثلاثة في سورة الفتح في قوله: ﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُؤْتُوا رِزْقَهُ وَتَسْبُحُوهُ بِكْرَةً وَأَصِيلًا﴾.

﴿٥٣ - ٥٤﴾ ﴿وَأَسْمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَشَأْنِ أَمْرِهِمْ لِيُخْرِجَنَّ قَلَّ تَقْسِمُوا طَاعَةَ مَعْرُوفَةَ إِنْ اللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ * قَلَّ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حَمَلْتُمْ وَإِنْ طَعِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ يخبر تعالى عن حالة المتخلفين عن الرسول ﷺ في الجهاد من المنافقين، ومن في قلوبهم مرض وضعف إيمان أنهم يقسمون بالله، ﴿لَنْ أَمْرَهُمْ﴾ فيما يستقبل، أو لن نصصت عليهم حين خرجت ﴿ليُخْرِجَنَّ﴾ والمعنى الأول أولى. قال الله - راداً عليهم -: ﴿قَلَّ لَا تَقْسِمُوا﴾ أي: لا نحتاج إلى إقسامكم ولا إلى أعدائكم، فإن الله قد نبأنا من أخباركم، وطاعتكم معروفة، لا تخفى علينا، قد كنا نعرف منكم التثاقل والكسل من غير عذر، فلا وجه لعذرهم وقسمكم، إنما يحتاج إلى ذلك، من كان أمره محتملاً، وحاله مشبهة، فهذا ربما يفيد العذر براءة، وأما أنتم فكلوا ولما، وإنما ينتظر بكم ويخاف عليكم حلول بأس الله ونقمته، ولهذا توعدهم بقوله: ﴿إِنْ اللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فيجازيكم عليها أتم الجزاء، هذه حالهم في نفس الأمر، وأما الرسول عليه الصلاة والسلام، فوظيفته أن يأمركم وينهاكم، ولهذا قال:

﴿قَلَّ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنَّ أَمْرَهُمْ شَلْشَلٌ﴾ كان حظكم وسعادتكم^(١)، وإن ﴿تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ من الرسالة، وقد أداها. ﴿وعليكم ما حملتم﴾ من الطاعة، وقد بانت حالكم وظهرت، فبان ضلالكم وغيبكم واستحقاقكم العذاب. ﴿وإن طاعيعوه تهتدوا﴾ إلى الصراط المستقيم،

﴿٥١ - ٥٢﴾ ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ * ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون﴾.

أي: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ حقيقة، الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم حين يدعون إلى الله ورسوله ليحكم بينهم، سواء وافق أهواءهم أو خالفها، ﴿أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أي: سمعنا حكم الله ورسوله، وأجبنا من دعائنا إليه، وأطعنا طاعة تامة، سالمة من الخرج.

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ حصر الفلاح فيهم، لأن الفلاح: الفوز بالمطلوب، والنجاة من المكروه، ولا يفلح إلا من حكم الله ورسوله، وأطاع الله ورسوله.

ولما ذكر فضل الطاعة في الحكم خصوصاً، ذكر فضلها عموماً، في جميع الأحوال، فقال: ﴿وَمَنْ يَطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيصدق خيرهما ويمثله أمرهما، ﴿وَيُخَشِ اللَّهَ﴾ أي: يخافه خوفاً مقروناً بمعرفة، فيترك ما نهى عنه، ويكف نفسه عما تهوى، ولهذا قال: ﴿وَيَتَّقِهِ﴾ بترك المحذور، لأن التقوى - عند الإطلاق - يدخل فيها، فعل المأمور، وترك النهي عنه، وعند اقتربها بالبر أو الطاعة - كما في هذا الموضع - تفسر بتوقفي عذاب الله، بترك معاصيه، ﴿فَأُولَئِكَ﴾ الذين جمعوا بين طاعة الله وطاعة رسوله، وخشية الله وتقواه، ﴿هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ بنجاتهم من العذاب، لتركهم أسبابه، ووصولهم إلى الثواب، لفعلهم أسبابه، فالفوز محصور فيهم، وأما من لم يتصف بوصفهم، فإنه يفوت من الفوز بحسب ما قصر عنه من هذه الأوصاف الحميدة، واشتملت هذه الآية، على الحق المشترك بين الله وبين رسوله، وهو الطاعة المستلزمة للإيمان، والحق المختص بالله، وهو الخشية والتقوى،

حكومة، ودعوا إلى حكم الله ورسوله ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مَعْرُضُونَ﴾ يريدون أحكام الجاهلية، ويفضلون أحكام القوانين غير الشرعية على الأحكام الشرعية، لعلمهم أن الحق عليهم، وأن الشرع لا يحكم إلا بما يطابق الواقع، ﴿وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ﴾ أي: إلى حكم الشرع ﴿مُذْعِنِينَ﴾ وليس ذلك لأجل أنه حكم شرعي، وإنما ذلك لأجل موافقة أهوائهم، فليسوا ممدوحين في هذه الحال، ولو أتوا إليه مذعنين، لأن العبد حقيقة، من يتبع الحق فيما يجب ويكره، وفيما يسره ويمجزه، وأما الذي يتبع الشرع عند موافقة هواه، وينبذه عند مخالفته، ويقدم الهوى على الشرع، فليس بعبد على الحقيقة، قال الله في لومهم على الإعراض عن الحكم الشرعي: ﴿أَفَنِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي: علة، أخرجت القلب عن صحته وأزالت حساسته، فصار بمنزلة المريض، الذي يعرض عما ينفعه، ويقبل على ما يضره، ﴿أَمْ ارْتَابُوا﴾ أي: شكوا، وقلقت قلوبهم من حكم الله ورسوله، واتهموه أنه لا يحكم بالحق، ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحْكُمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ﴾ أي: يحكم عليهم حكماً ظالماً جائراً، وإنما هذا وصفهم ﴿بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾

وأما حكم الله ورسوله، ففي غاية العدالة والقسط، وموافقة الحكمة. ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾. وفي هذه الآيات، دليل على أن الإيمان، ليس هو مجرد القول حتى يقترن به العمل، ولهذا نفى الإيمان عمن تولى عن الطاعة، ووجوب الانقياد لحكم الله ورسوله في كل حال، وأن من ينقذ له دل على مرض في قلبه، وريب في إيمانه، وأنه يجرم إساءة الظن بأحكام الشريعة، وأن يظن بها خلاف العدل والحكمة.

ولما ذكر حالة المعرضين عن الحكم الشرعي، ذكر حسالة المؤمنين المدوحين، فقال:

(١) في ب: كان حظهم وسعادتهم.

قولاً وعملاً، فلا سبيل لكم إلى الهداية إلا بطاعته، وبدون ذلك، لا يمكن، بل هو محال.

﴿وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾ أي: تليغكم البين الذي لا يبقى لأحد شكاً ولا شبهة، وقد فعل ﷺ، بلغ البلاغ المبين، وإنما الذي يحاسبكم ويجازيكم هو الله تعالى، فالرسول ليس له من الأمر شيء، وقد قام بوظيفته.

﴿٥٥﴾ ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾ هذا من أو عاده^(١) الصادقة، التي شوهد تأويلها وبغيرها، فإنه وعد من قام بالإيمان والعمل الصالح من هذه الأمة، أن يستخلفهم في الأرض، يكونون هم الخلفاء فيها، المتصرفين في تدبيرها، وأنه يُمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وهو دين الإسلام، الذي فاق الأديان كلها، ارتضاه لهذه الأمة، لفضلها وشرفها ونعمته عليها، بأن يتمكنوا من إقامته، وإقامة شرائعه الظاهرة والباطنة، في أنفسهم وفي غيرهم، لتكون غيرهم من أهل الأديان وسائر الكفار مغلوبين ذليلين، وأنه يبدلهم من بعد خوفهم الذي كان الواحد منهم لا يتمكن من إظهار دينه، وما هو عليه إلا بأذى كثير من الكفار، وكون جماعة المسلمين قليلين جداً بالنسبة إلى غيرهم، وقد رماهم أهل الأرض عن قوس واحدة، وبغوا لهم الغوائل.

فوعدهم الله هذه الأمور وقت نزول الآية، وهي لم تشهد الاستخلاف في الأرض والتمكين فيها، والتمكين من إقامة الدين الإسلامي، والأمن التام، بحيث يعبدون الله ولا يشركون به شيئاً، ولا يخافون أحداً إلا الله، فقام صدر هذه

الأمة، من الإيمان والعمل الصالح بما يفوقون على غيرهم، فمكنتهم من البلاد والعباد، وفتحت مشارق الأرض ومغاربها، وحصل الأمن التام والتمكين التام، فهذا من آيات الله العجيبة الباهرة، ولا يزال الأمر إلى قيام الساعة، مهما قاموا بالإيمان والعمل الصالح، فلا بد أن يوجد ما وعدهم الله، وإنما يسلب عليهم الكفار والمنافقين، ويبدلهم في بعض الأحيان، بسبب إخلال المسلمين بالإيمان والعمل الصالح.

﴿ومن كفر بعد ذلك﴾ التمكن والسلطنة التامة لكم، يا معشر المسلمين، ﴿فأولئك هم الفاسقون﴾ الذين خرجوا عن طاعة الله، وفسدوا، فلم يصلحوا لصالح، ولم يكن فيهم أهلية للخير، لأن الذي يترك الإيمان في حال عزه وقهره، وعدم وجود الأسباب المانعة منه، يدل على فساد نيته، وخبث طويته، لأنه لا داعي له لترك الدين إلا ذلك. ودلت هذه الآية، أن الله قد مكّن من قبلنا، واستخلفهم في الأرض، كما قال موسى لقومه: ﴿ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون﴾ وقال تعالى: ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين * ونمكن لهم في الأرض﴾.

﴿٥٦ - ٥٧﴾ ﴿واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون﴾ لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض ومأواهم النار وليشئ المصير﴾ يأمر تعالى بإقامة الصلاة، بأركانها وشروطها وأدائها، ظاهراً وباطناً، وبإيتاء الزكاة من الأموال التي استخلف الله عليها العباد، وأعضائهم إياها، بأن يؤتوها الفقراء وغيرهم، ممن ذكرهم الله لمصرف الزكاة، فهذان أكبر الطاعات وأجلهما، جامعتان لحقه وحق خلقه، للإخلاص للمعبود، وللإحسان إلى

العبيد، ثم عطف عليهما الأمر العام، فقال: ﴿وأطيعوا الرسول﴾ وذلك بامثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ ﴿لعلكم﴾ حين تقومون بذلك ﴿ترحمون﴾ فمن أراد الرحمة، فهذا طريقها، ومن رجاها من دون إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وإطاعة الرسول، فهو مُتَمَنِّ كاذب، وقد منته نفسه الأمانى الكاذبة.

﴿لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض﴾ فلا يقرركم ما مُتَمَنُّوا به في الحياة الدنيا، فإن الله، وإن أمهلهم فإنه لا يمهلهم ﴿نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ﴾.

ولهذا قال هنا: ﴿ومأواهم النار وليشئ المصير﴾ أي: بشئ المال، مآل الكافرين، مآل الشر والحسرة والعقوبة الأبدية.

﴿٥٨﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضمون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم﴾ أمر المؤمنين أن يستأذنتهم مما ليكهم، والذين لم يبلغوا الحلم منهم. قد ذكر الله حكمته وأنه ثلاث عورات للمستأذن عليهم، وقت نومهم بالليل بعد العشاء، وعند انتابهم قبل صلاة الفجر، فهذا - في الغالب - أن التائم يستعمل للنوم في الليل ثوباً غير ثوبه المعتاد، وأما نوم النهار، فلمَّا كان في الغالب قليلاً، قد ينام فيه العبد بشيابه المعتاد، قيده بقوله: ﴿وحين تضمون ثيابكم من الظهيرة﴾ أي: للقاتلة، وسط النهار.

ففي ثلاثة هذه الأحوال، يكون المالك والأولاد الصغار كغيرهم، لا يُمكنون من الدخول إلا بإذن، وأما

(١) كذا في النسخين، ولعل الصواب: وعوده.

ما عدا هذه الأحوال الثلاثة فقال: **﴿ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن﴾** أي: ليسوا كغيرهم، فإنهم يحتاج إليهم دائماً، فيشق الاستئذان منهم في كل وقت، ولهذا قال: **﴿طوافون عليكم بعضكم على بعض﴾** أي: يترددون عليكم في قضاء أشغالكم وحوادثكم.

﴿كذلك يبين الله لكم الآيات﴾ بياناً مقروناً بحكمته، ليتأكد ويتقوى ويعرف به رحمة شارعها وحكمته، ولهذا قال: **﴿والله عليم حكيم﴾** له العلم المحيط بالواجبات والمستحبات والممكنات، والحكمة التي وضعت كل شيء موضعه، فأعطى كل مخلوق خلقه اللائق به، وأعطى كل حكم شرعي حكمه اللائق به، ومنته هذه الأحكام التي بيّنها وبين مأخذها وحسنها.

﴿٥٩﴾ وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم، وهو إنزال المني بقظة أو مناماً، فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم، أي: في سائر الأوقات، والذين من قبلهم، هم الذين ذكرهم الله بقوله: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا﴾** الآية.

﴿كذلك يبين الله لكم الآيات﴾ ويوضحها، ويفصل أحكامها **﴿والله عليم حكيم﴾**.

وفي هاتين الآيتين فوائد، منها: أن السيد وولي الصغير، مخاطبان بتعليم عبيدهم ومن تحت ولايتهم من الأولاد، العلم والآداب الشرعية، لأن الله وجه الخطاب إليهم بقوله: **﴿يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم﴾** الآية، ولا يمكن ذلك، إلا بالتعليم والتأديب، ولقوله: **﴿ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن﴾**.

ومنها: الأمر بحفظ العورات، والاحتياط لذلك من كل وجه، وأن

المحل والمكان، الذي مظنة لرؤية عورة الإنسان فيه، أنه منهى عن الاغتسال فيه والاستنجاء، ونحو ذلك.

ومنها: جواز كشف العورة لحاجة، كالحاجة عند النوم، وعند البول والغائط، ونحو ذلك.

ومنها: أن المسلمين كانوا معتادين للقليل وسط النهار، كما اعتادوا نوم الليل، لأن الله خاطبهم ببيان حالهم الموجودة.

ومنها: أن الصغير الذي دون البلوغ، لا يجوز أن يمكّن من رؤية العورة، ولا يجوز أن تُرى عورته، لأن الله لم يأمر باستئذانهم، إلا عن أمر ما يجوز.

ومنها: أن المملوك أيضاً، لا يجوز أن يرى عورة سيده، كما أن سيده لا يجوز أن يرى عورته، كما ذكرنا في الصغير.

ومنها: أنه ينبغي للواعظ والمعلم ونحوهم، ممن يتكلم في مسائل العلم الشرعي، أن يقرن بالحكم، بيان مأخذه ووجهه، ولا يلقيه مجرداً عن الدليل والتعليل، لأن الله - لما بيّن الحكم المذكور - علله بقوله: **﴿ثلاث عورات لكم﴾**.

ومنها: أن الصغير والعبد، مخاطبان، كما أن وليهما مخاطب لقوله: **﴿ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن﴾**.

ومنها: أن ريق الصبي ظاهر، ولو كان بعد نجاسة، كالقي، لقوله تعالى: **﴿طوافون عليكم﴾** مع قول النبي ﷺ حين سئل عن الهرة: «إنها ليست بنجس، إنها من الطوافين عليكم والطوافات».

ومنها: جواز استخدام الإنسان من تحت يده، من الأطفال على وجه

قَالَ لِيُرَى اللَّهُ وَلِيُرَى الرَّسُولَ فَإِنْ تَرَوْهُ فَقُمْ عَلَيْهِ مَا حَبَلٌ وَعَلَيْكُمْ مَا حَبَلٌ وَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَمَا حَبَلٌ وَأَنْتُمْ عَلَى الرَّسُولِ إِذْ أَنْتُمْ عَلَى الْبُيُوتِ ۖ وَبَعْدَ ذَلِكَ لَكُمْ أَنْ تَقُولُوا لِمَنْ شِئْتُمْ مِنْ قُرْبَىٰ وَلِمَنْ حَبَلٌ وَيَسْأَلُ اللَّهُ الَّذِي فِي الْأَرْضِ مَا حَبَلٌ كَمَا اسْتَفْتَيْتُمْ بِهِ سَأَلْتُمْ بِهَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْفَاسِقِينَ ۖ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا لَمْ تَجِدُوا عَلَى الْبُيُوتِ كِتَابًا فَتَقُولُوا مَا حَبَلٌ ۚ وَاللَّهُ عَالِمُ الْغُيُوبِ ۚ وَلَا تَجْسَمُوا عَلَى الَّذِينَ هُمْ فِي الْأَرْضِ وَمَاتُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنزِلَ إِلَيْكُمْ أَمْرًا مِنْ رَبِّكُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ أَكْثَرُ فَاسِقِينَ ۚ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا لَمْ تَجِدُوا عَلَى الْبُيُوتِ كِتَابًا فَتَقُولُوا مَا حَبَلٌ ۚ وَاللَّهُ عَالِمُ الْغُيُوبِ ۚ وَلَا تَجْسَمُوا عَلَى الَّذِينَ هُمْ فِي الْأَرْضِ وَمَاتُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنزِلَ إِلَيْكُمْ أَمْرًا مِنْ رَبِّكُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ أَكْثَرُ فَاسِقِينَ ۚ

معتاد، لا يشق على الطفل لقوله: **﴿طوافون عليكم﴾**.

ومنها: أن الحكم المذكور المفصل، إنما هو لما دون البلوغ، فأما ما بعد البلوغ، فليس إلا الاستئذان.

ومنها: أن البلوغ يحصل بالإنزال، فكل حكم شرعي رتب على البلوغ، حصل بالإنزال، وهذا يجمع عليه، وإنما الخلاف، هل يحصل البلوغ بالسن، أو الإنبات للعادة، والله أعلم.

﴿٦٠﴾ والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحاً فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة وأن يستعفنن خير لهن والله سميع عليم، والقواعد من النساء أي: اللاتي قعدن عن الاستمتاع والشهوة اللاتي لا يرجون نكاحاً، أي: لا يطمعن في النكاح، ولا يطمعن فيهن، وذلك لكونها عجوزاً لا تُشتهي، أو دميمة الخلقة لا تُشتهي ولا تُشتهي^(١).

﴿فليس عليهن جناح﴾ أي: حرج وإثم **﴿أن يضعن ثيابهن﴾** أي: الثياب الظاهرة، كالخمار ونحوه، الذي قال الله فيه للنساء: **﴿وليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾**. فهؤلاء،

(١) كذا في السخيتين، ولعل في الكلام قلباً فالأقرب أن يقال: (عجوزاً لا تُشتهي ولا تُشتهي، أو دميمة الخلقة لا تُشتهي).

بالمملوك، فليس بوجهه، لوجهين:
أحدهما: أن المملوك لا يقال فيه
«ملكته مفاخه»، بل يقال: «ما
ملكتموه» أو «ما ملكت أيمانكم» لأنهم
مالكون له جملة، لا لمفاخه فقط.

والثاني: أن بيوت الممالك، غير
خارجة عن بيت الإنسان نفسه، لأن
المملوك وما ملكه لسيدته، فلا وجه
لنفي الخرج عنه.

﴿أو صديقكم﴾ وهذا الخرج المنفي
عن الأكل^(١)، من هذه البيوت كل
ذلك، إذا كان بدون إذن، والحكمة فيه
معلومة من السياق، فإن هؤلاء
المسمين^(٢)، قد جرت العادة والعرف،
بالمساحة في الأكل منها، لأجل القرابة
القريبة، أو التصرف التام، أو
الصدقة، فلو قُدر في أحد من هؤلاء
عدم المساحة والشح في الأكل
المذكور، لم يميز الأكل، ولم يرتفع
الخرج، نظراً للحكمة والمعنى.

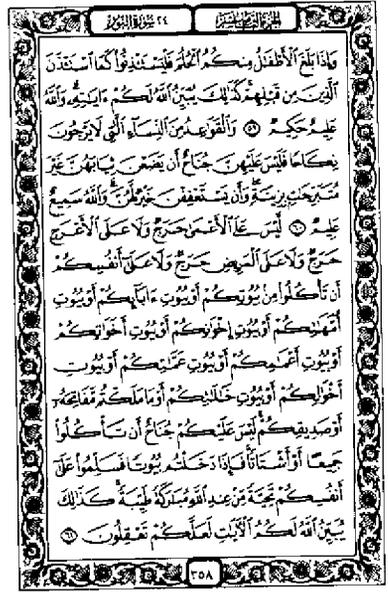
وقوله: ﴿ليس عليكم جناح أن
تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً﴾ فكل ذلك
جائز، أكل أهل البيت الواحد جميعاً،
أو أكل كل واحد منهم وحده، وهذا
نفى للخرج، لا نفى للفضيلة وإلا
فالأفضل الاجتماع على الطعام.

﴿فإذا دخلتم بيوتاً﴾ نكرة في سياق
الشرط، يشمل بيت الإنسان وبيت
غيره، سواء كان في البيت ساكن أم
لا، فإذا دخلها الإنسان ﴿فسلموا على
أنفسكم﴾ أي: فليسلم بعضكم على
بعض، لأن المسلمين كأنهم شخص
واحد، من تواددهم، وتراحمهم،
وتعاطفهم، فالسلام مشروع لدخول
ساكن البيوت، من غير فرق بين بيت
وبيت، والاستئذان تقدم أن فيه تفصيلاً
في أحكامه، ثم مدح هذا السلام
فقال: ﴿تحية من عند الله مباركة

أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت
عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت
خالاتكم أو ما ملكتم مفاخه أو
صديقكم ليس عليكم جناح أن تأكلوا
جميعاً أو أشتاتاً فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا
على أنفسكم تحية من عند الله مباركة
طيبة كذلك بين الله لكم الآيات
لعلكم تعقلون﴾ يجبر تعالى عن مثيئه على
عباده، وأنه لم يجعل عليهم في الدين
من حرج بل يسهر غاية التيسير، فقال:

﴿ليس على الأعمى حرج ولا على
الأعرج حرج ولا على المريض حرج﴾
أي: ليس على هؤلاء جناح، في ترك
الأمر الواجب، التي تتوقف على واحد
منها، وذلك كالجهاد ونحوه، مما
يتوقف على بصر للأعمى، أو سلامة
للأعرج، أو صحة للمريض، ولهذا
المعنى العام الذي ذكرناه، أطلق الكلام
في ذلك، ولم يقيد، كما قيد قوله:
﴿ولا على أنفسكم﴾ أي: حرج ﴿أن
تأكلوا من بيوتكم﴾ أي: بيوت
أولادكم، وهذا موافق للحديث
الشابث: «أنت ومالك لأبيك»،
والحديث الآخر: «إن أطيب ما أكلتم
من كسبكم، وإن أولادكم من
كسبكم»، وليس المراد من قوله: ﴿من
بيوتكم﴾ بيت الإنسان نفسه، فإن هذا
من باب تحصيل الحاصل، الذي ينزه
عنه كلام الله، ولأنه نفى الخرج عما
يظن أو يتوهم فيه الإثم من هؤلاء
المذكورين، وأما بيت الإنسان نفسه
فليس فيه أدنى توهم.

﴿أو بيوت آبائكم أو بيوت
أمهاتكم، أو بيوت إخوانكم، أو بيوت
أخواتكم، أو بيوت أعمامكم، أو
بيوت عماتكم، أو بيوت أخوالكم، أو
بيوت خالاتكم﴾ وهؤلاء معروفون،
﴿أو ما ملكتم مفاخه﴾ أي: البيوت
التي أنتم متصرفون فيها بوكالة، أو
ولاية ونحو ذلك، وأما تفسيرها



يجوز لهن أن يكشفن وجوههن لأمن
المحذور منها وعليها، ولما كان نفى
الخرج عنهن في وضع الثياب، ربما
توهم منه جواز استمالها لكل شيء،
دفع هذا الاحتراز بقوله: ﴿غير
متبرجات بزينة﴾ أي: غير مظهرات
للناس زينة، من تجمل بثياب ظاهرة،
وتستر وجهها، ومن ضرب الأرض
برجلها، ليعلم ما تحفي من زينتها، لأن
مجرد الزينة على الأنثى، ولو مع
تسترها، ولو كانت لا تشتهى يفتن
فيها، ويوقع الناظر إليها في الخرج
﴿وأن يستعطفن خبير لهن﴾ .
والاستعفاف: طلب العفة، بفعل
الأسباب المقتضية لذلك، من تزوج
ونزك لما يحشى منه الفتنة، ﴿والله
سميع﴾ لجميع الأصوات ﴿عليم﴾
بالنيات والمقاصد، فليحذرن من كل
قول وقصد فاسد، ويعلمن أن الله
يجازي على ذلك.

﴿٦١﴾ ﴿ليس على الأعمى حرج
ولا على الأعرج حرج ولا على المريض
حرج ولا على أنفسكم أن تأكلوا من
بيوتكم أو بيوت آبائكم أو بيوت
أمهاتكم أو بيوت إخوانكم أو بيوت

(١) في ب: من.

(٢) مراد الشيخ - رحمه الله - فإن بيوت هؤلاء المسمين، كما يبدو - والله أعلم -.

